

سياسة الاستعمار الفرنسي في تكريس الطائفية بين سكان منطقة القبائل
والمجتمع الجزائري

الدكتور: سواكري الطاهر

جامعة سعد دحلب البليدة- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2014/11/01 تاريخ القبول: 2014/11/23 تاريخ النشر: 2014/12/01

ظهرت أثناء الفترة الاستعمارية بعض البحوث والأعمال المنجزة انطلقت من بعض المونوغرافيات حول منطقة القبائل وركزت على بعض المجموعات القبلية دون غيرها. ولا شك في أن ذلك كان يندرج ضمن إحدى خطط واستراتيجيات الاستعمار الفرنسي المتمثلة في محاولة القضاء مصادر الخطر في المناطق المعروفة بالتمرد ومقاومة الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق وكذلك محاولة البحث عن حلفاء أو خلق الانقسام في المجتمع الجزائري الذي ينطلق من مبدأ "فرق تسد". وقد ركز ماسكراي (Masqueray) على ثلاثة مجموعات جزائرية لها تقاليد عرقية في الاستقرار هي منطقة القبائل، الأوراس والمزاب.⁽¹⁾

من الجرائم التي ارتكها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، جرائم الإبادة الجماعية والقتل، الجرائم الاقتصادية وتدمير الممتلكات الثقافية للمجتمع الجزائري ومحاولة تجريدته من قيمته الاجتماعية والدينية. و من أخطر الجرائم التي ارتكها الاستعمار الفرنسي في الجزائر هي:

محاولة غرس بذور الطائفية بين سكان المجتمع الجزائري مستعملا كل الطرق مثل تشجيع عملية الاستيطان وتجريد الجزائريين من أراضيهم من أجل

الدكتور: سواكري الطاهر

تفقيدهم وتفكيك البنية العائلية الريفية وكذلك محاولة التشكيك في أصول بعض سكان الجزائر وتنصيرهم وغيرها.

من الأساليب الأخرى، لقد شجع الاستعمار الفرنسي عملية الاستيطان أو ما يسمى بالتوسع المدني حيث تزامنت هجرات فرنسية و أوروبية مع توسعات العسكريين.

و قد كان وراء عملية الاستيطان أكثر من طرف رسمي فرنسي وعقائدي أوروبي. وشهدت الجزائر في الفترة الاستعمارية حركة هجرة واسعة حيث ازداد عدد المهاجرين من 28 ألف سنة 1840 إلى أكثر من 110 ألفا سنة 1848، من بينهم 52 ألف فرنسي. وترتب عن هذا الزحف الأوروبي على الجزائر، استعمار مدني بجانب الاستعمار العسكري. وتدعم هذا الاستعمار بإصدار سلسلة من القوانين والقرارات خولت للمعمرين الاستيلاء بطرق مختلفة على أجود الأراضي، منها قانون 1845 الذي صادر أملاك القبائل التي أعلنت عصيانها ضد الاستعمار الفرنسي تحت رقابة السلطة العسكرية.⁽²⁾

أما عدد الأراضي التي وزعت على المعمرين فكانت 115000 هكتار سنة 1850، ثم ارتفع هذا الحجم بعد 11 سنة فقط ، أي في سنة 1861 إلى ما يقرب من 343400 هكتار. وهذه المساحة لا تعكس في الواقع رصيد الأراضي الزراعية المصادرة خلال هذه الفترة التاريخية، لأنه إذا أخذنا فقط مجموع الأراضي الملحقة بالدومين. حسب نصوص قانون الملكية المصادرة في 1851 ، نجدها ترتفع من حيث المساحة إلى 3.470.207 هكتار. وقد وقع هذا التوسع الكبير على حساب أراضي العرش التي تقلصت مساحتها من 5 مليون هكتار قبيل الاستعمار الفرنسي إلى 1.523.000 هكتار في نهاية 1870 .

الجزائري

إن الأراضي الموزعة على الأوروبيين تشكل في الهيكل الاقتصادي الزراعي بالجزائر ما أصبح يسمى بالقطاع للمعمرين الذي يمثل العلاقات الإنتاجية الرأسمالية بمعنى الكلمة⁽³⁾.

لقد عمل الاستعمار الفرنسي على تحطيم الملكيات الزراعية الجماعية كعامل اجتماعي حيث تعتمد القرى على هذه الأراضي في حل مشاكلها الاجتماعية خصوصا عندما تكون هذه الأراضي داخل القرية أو جوارها. أما في منطقة القبائل فيرى عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو (Pierre Bourdieu) أنه توجد رموز لا يمكن المساس بها وهي اسم العائلة، الشرف والملكية⁽⁴⁾. بما فيها ملكية الأراضي حيث تعتمد الزراعة في منطقة القبائل على إنتاج الزيتون والتين، الحبوب وتربية الأغنام⁽⁵⁾.

لقد تعمد الاستعمار الفرنسي تحطيم رموز منطقة القبائل وذلك بالقضاء على العمل الزراعي حيث تبين خلال سنوات الحرب 2/3 من الأراضي المخصصة لزراعة التين أصبحت تقع في المناطق المحرمة (zone interdite). هذه الوضعية صعبت على سكان القرى ممارسة العمل الزراعي وخاصة في مناطق إغيل بوسويل (Ighil Boussuil) و إسناجان (Issenagéne) مما أدى بهم إلى التخلي على أراضيهم والتنقل إلى المناطق الأخرى المجاورة مثل تيقزيرت أو النزوح إلى الجزائر العاصمة.

لقد استطاعت النزعة الاستيطانية لدى السياسة الاستعمارية في الجزائر أن تحدث انقساماً ما بين المجتمع البدوي الذي اعتبرته خصمها وعدوها الأول، ولذلك خاضت معه صراعاً عنيفاً وبين المجتمع المستقر وكان ينظر إلى هؤلاء المستقرين باعتبارهم أصدقاء يحتاجون إلى الحماية والمساندة. ولذلك عملت مختلف الهياكل الاستعمارية على تعميق إيديولوجية الانقسام بين العرب

الدكتور: سواكري الطاهر

والبربر، بين المستقرين والقبائل البدوية وشبه البدوية. وفي هذا الصدد تقول جون فافري " لم يتردد القبائليون في العمل بضيعات المعمرين ، لاشك أن هذه الوقائع هي الأساس التاريخي لثنائية القبائلي، العربي، وما يطابقها من تعارضات مثل التقشف مقابل التسيب والعمل مقابل الكسل والانضباط مقابل التهاون (6)»

إن هذه التصريحات ما هي إلا دليل واضح على محاولة الاستعمار الفرنسي تقسيم المجتمع الجزائري حسب الانتماء العرقي.

وفي هذا الإطار كلف الاستعمار الفرنسي مجموعة من الضباط لدراسة المجتمع الجزائري دراسة سوسولوجية، أنثروبولوجية، لمحاولة إيجاد الثغرات والمنافذ (على حسب قول ابن خلدون) التي تمكنها من تسريب سموم هذه السياسة إلى دواخله. وبعد اكتشافهم سكان منطقة القبائل المتميزة باستعمال اللسان الأمازيغي، وضعوا أكذوبة سياسية كبيرة عنوانها "الشعب القبائلي" فقاموا بترويجها بكل ما أتوا من قوة خاصة من خلال الكتابة التاريخية والاجتماعية⁽⁷⁾.

وقد شكلت في الفترة 1875 و 1880 مجموعة مكونة من قدماء الضباط المكاتب العربية ومن بعض الإداريين في البلديات المختلطة لإعداد مخطط لتعليم وفرنسة سكان القبائل الكبرى. وكان منظرو هذا الفريق هم الذين اختلقوا الفكرة التي سماها المؤرخون الأسطورة القبائلية. وافتعل هذا الفريق فكرة التفرقة بين العرب والقبائل على أساس أن الأمازيغ أسى من العرب. وكان دعاة التفرقة هذه يقدمونها على أنها عمل حضاري وتقدمي⁽⁸⁾.

ومن أساليب التفرقة بين سكان القبائل وسكان الجزائر ما صرح به واريبي، إن تقاليد الإنسان القبائلي الفلاح المرتبط بأرضه والمقدس لها تقديسا حقيقيا والذي يتخذ له على العموم زوجة واحدة وتعد المرأة بالنسبة له أما وربة البيت وليست بهيمة مثل ما هو الشأن في المجتمع الجزائري العربي⁽⁹⁾.

الجزائري

ويزعم وارينى أن سكان القبائل يشكلون الأغلبية بينما العرب يشكلون الأقلية، وعليه فمن اللائق

استبدال "السياسة العربية" فقد استند وارينى إلى تقديرات سابقه لكل من كاريت وهانوتو فأكد أن في الجزائر هناك 1.200.000 بربري مستعرب ومليون بربري 500.000 عربي⁽¹⁰⁾.

ويذهب الأمر ببعض النزعات الانقسامية إلى اعتبار القبائلي بروتستينيا في نزوعه إلى العقلانية وفي جدبته في العمل وروح المبادرة. ومن مظاهر تفكيك المجتمع الجزائري من طرف السياسة الاستعمارية هي محاولة القضاء على التنظيم القبلي وتعويضه بشبكة إدارية ذات رقابة صارمة. لقد عمدت فرنسا إلى تفكيك النسيج الاقتصادي التقليدي واستبدال المنظومة القيمية والعلائقية في الريف الجزائري. إن إجراءات التدمير من أجل البناء لم تفض إلا إلى تهميش المزارعين الريفيين وخلق فئات جديدة "فلاحون بدون أرض وبروليتاريا المدن"⁽¹¹⁾.

كما أدت التحولات المفروضة إلى أزمة في نظام القيم وأخرى في النسيج الاجتماعي وروابطه. لقد تم نقل الفاعلين بشكل سريع وعنيف من نمط الحياة الجماعية القائمة على الوحدة العشائرية ذات التضامن القرابي، إلى الجماعة الاصطناعية القائمة على الفردانية وقد ذهب بورديو إلى اعتبار أن ظاهرة المقهى قد عوضت ظاهرة العشيرة خصوصا في تجسيد فضاءات اللقاء والقيام بحل الخلافات الثنائية في المجتمعات الجديدة التي أحدثها المستعمر⁽¹²⁾.

وقد زاد من وتيرة تفكيك البنى القبلية في الجزائر الاستيلاء على الملكية الجماعية العقارية للقيام من خلال إصدار القوانين وتشجيع الملكية الخاصة تسهيلا لتدخل المستوطنين. فمنذ 1830 اعتبرت فرنسا نفسها الوريث الشرعي للأحباس وأراضي البيلك*، حيث وصلت المساحات المصادرة إلى 2300 ألف

الدكتور: سواكري الطاهر

هكتار. كل ذلك ساعد على تفكيك البنية الاجتماعية في الريف. وهمش المجتمع المحلي وأدى إلى اضطراب المفاهيم ، فلاحا بدون فلاحين وحضريون بدون مدينة⁽¹³⁾.

وعمد الاستعمار في هذه الفترة إلى تأسيس الأسطورة القبائلية والتي عاشت حتى قبل الاستعمار واكتشاف خصوصية المجتمع القبائلي حيث بدأت هذه الأسطورة تكسب أنصارا ومدعين لها و التي بدأ. في الظهور في الفترة ما بين 1840 و1875 وتعززت ما بين سنوات 1860 و 1870 لأعراض سياسية وجدلية من سنة 1871 إلى سنة 1891.

ومما لا شك فيه أنّ، القس "راينال" هو أول من تحدث عن الأسطورة القبائلية في الجزء الأول من التاريخ الفلسفي لإفريقيا الشمالية وهو كتاب ظهر سنة 1826 بعد وفاة مؤلفة ، حيث أن القس راينال (Raynal) أو بنشي (Penchet) الذي أكمل عمله قد سجل السمات الأساسية للخصوصية البربرية المتمثلة في لغة أصيلة فقيرة جدا ، حياة مستقرة لأولئك الجبلين، ميلهم الشديد إلى الحرية ، ولكنه كان على إلمام بالموضوعات الرئيسية التي ستتكون منها الأسطورة القبائلية: الأصل الشمالي البربري الذي يتميزون بالفتور التدين الإسلامي المصطنع والاستقلالية المطلقة التي يقال إنهم طالما تمتعوا فامتلاكهم قطعهم الأرضية دليل على أنهم لم يقهروا وأن حريتهم بقيت كاملة غير منقوصة⁽¹⁴⁾.

لقد تم التركيز في أعمال السوسولوجيا في البدء على موضوع السكان المستقرين من ذوي الأصول "البربرية" فالنموذج الذي انطلقت منه تلك الدراسات هو النموذج القبائلي

(les kabyles) والأوراس و المزاب وهي المناطق الجزائرية التي أنجزت حولها أعمال كل من هانوتو (Hanoteau) ولوتورنو زماسكاري (Masqueray)

الجزائري

لقد كانت ترى هذه السياسة الاستعمارية أن السكان المستقرين (سكان القبائل) سيكونون أقل رفضاً للتدخل الاستعماري⁽¹⁵⁾. لكن الحقائق التاريخية جاءت عكس هذه التوقعات وهذا ما سوف نأكده لاحقاً.

ومن الدراسات السوسولوجية الكولونيالية دراسة هانتوتو حول المسألة البربرية وقد كان هذا الضابط حاكماً لزواوة فترة طويلة، فقد سبق غيره في الاهتمام بلهجتها وأصدر بشأنها مؤلفات جاءت نتيجة اعتماده على علماء المنطقة وبحوثه في عين المكان. وقد خرج من ذلك الكتاب الضخم الذي أصدره بمعية زميله لوتورنو (Letourneau) بعنوان جرجرة وعاداتها. وفيما يخص هذا الكتاب نجد أ، هانتوتو لوتورنو يعيدان إنتاج تقريباً نفي الأفكار التي سبقهم إليها دوماس (Daumas) والمتمثلة في⁽¹⁶⁾ :

- الأصل الجرمانى للبربر.

- ضعف إسلام البربر.

- تمسكهم بالحرية.

أما الشيء الجديد مقارنة مع من سبقوهم في معالجة الثنائية (البربري-العربي) تكمن في نظرتهم إلى مسألة كراهية البربر للوجود الفرنسي ومحاربتهم له. وهذا عكس ما حاول الكثير من الباحثين ترويج فكرة قبول الوجود الفرنسي وخاصة في مناطق القبائل.

وكان العقيد دوماس (Daumas) والنقيب فابر (Fabar) يعتقدان أنّ شعب القبائل الجرمانى الأصل في جزء منه، قد عرف المسيحية من قبل ولم يطرأ عليه تغيير مع دينه الجديد، فقد قبل القرآن ولكنه لم يعتنقه، وخلافاً للنتائج الشاملة التي أحرزها الدين الإسلامي فإن اعتقاد دوماس وفابر تقاليد وأعراف سكان منطقة القبائل تشتم منها رائحة المساواة ورحمة المسيحية⁽¹⁷⁾. وقد كتب

الدكتور: سواكري الطاهر

دوماس في تقرير رسمي هناك جنسان في الجزائر يتميز كل منهما عن الآخر ، جنس عربي و جنس قبائلي ، أحدهما بدوي من الرحل والثاني مستقر مقيم وفي هذا الصدد كتب توكفيل (Tocqueville) منذ 1873 يقول " إذا كان بلد القبائل موصدا في وجوهنا، فإن روح سكان القبائل مفتوحة لنا لأنهم اكتشفوا الفائدة المادية التي يمكنهم جنبيها من جوارنا" (18)

وقد نشر هذا الباحث المؤيد للاستعمار الفرنسي في سنة 1844 تقريرا حول المجتمع العربي وضعه تحت تصرف الضباط الفرنسيين ثم أصدر كتابا مهما سنة 1853 بعنوان "عادات وتقاليد الجزائر" حيث ركز فيه هذا الباحث الضابط اهتمامه حول منطقة القبائل باعتبارها قضية راهنة وهذا بعد أن استعصت على الاستعمار الفرنسي وصارت شوكة في حلق الاستعمار الفرنسي الذين عز عليهم أن تبقى هذه المنطقة ذات التضاريس الوعرة والموقع الاستراتيجي الهام خارجه عن نفوذهم وسيطرتهم.

وقد وضع هذا الضابط دراسته تحت تصرف الحاكم العام المارشال "راندون" الذي كان يسعى لإخضاع منطقة القبائل . وبعدها تأكد هذا المارشال أن سكان القبائل لهم طبيعة التمرد والتعلق بالاستقلال التام تميز سكانها منذ القديم. وسعى الضابط دوماس إلى إسقاط الطابع السياسي الطائفي على هذه المنطقة في محاولة منه لإقناع الدولة الفرنسية بوجود شعبين مختلفين في الجزائر يتوجب على الحاكم العام أن يأخذ ذلك في سياسته الاستعمارية بعين الاعتبار ، وهذا وقد تحدث هذا الضابط على خصائص "الجنس القبلي" محاولا في البداية أن يشرح أصل التسمية (القبائل) فذكر احتمالات عديدة مثل "قبول" السكان للإسلام و"قبل" أي قبل الفتح الإسلامي ، ليرجح في الأخير احتمال أن تكون التسمية مشتقة من كلمة "القبائل" (مفردها القبيلة) (19) .

الجزائري

ثم أسهب في الحديث عن وصف نظام تاجماعث المتواجدة على مستوى كل قرية وبالنظر إلى ميزته الديمقراطية التي تسمح لكل المواطنين (دون تمييز) بالتعبير عن آرائهم لكل حرية، فقد صارت كل قرية بمثابة جمهورية مستقلة تتحالف مع غيرها من القرى خاصة في أوقات الحروب في إطار ما يسمى "الصف" بيد أن ما يميز هذه التحالفات كونه ظرفية تنتهي بزوال الأسباب الداعية إليها.

لقد عملت الدراسات الكولونيالية حول المجتمع الجزائري على إبراز الاختلاف بين كل من العرب والبربر ونشر مبدأ فرق تسد وضرب كل ما هو عربي إسلامي ولتوضيح أكثر حول الثنائية (العربي، البربري) نقدم الجدول التالي المأخوذ من أعمال دوماس (Daumas) وفابر (Fabar) .

خصائص ومميزات العربي (Arabe)	خصائص ومميزات "القبائلي" (kabyle)
- العربي له شعر وعيون سوداء	- أغلبية القبائل لهم عيون زرقاء والشعر أشقر
- العربي يكثر من استعمال الطلاسم لإبعاد الأرواح الشريرة الأمراض والموت	- القبائلي لا يؤمن بهذا ، يؤمن بما كتبه الله له.
- العربي يكره العمل ، الكسل من طبعه	- القبائلي يعمل كثيرا وفي كل الفصول الكسل بالنسبة له عار.
- العربي ليست له ضاعة بآتم المعنى بالرغم من إنجازها للأسرجة ومعدات الرواحل	- القبائل على العكس صاحب ضائع يبني بيته يعمل في النجارة ، يصنع الأسلحة والنسيج
- العرب يسرقون متى سمحت لهم الفرصة بذلك وخاصة في النهار	- القبائل يسرقون خاصة في الليل وفقط أعدائهم
- العربي لا يعرف يستثمر أمواله	- على العكس نجد القبائلي يعرف جيد كيف يستثمر
- النساء لهن حرية محدودة جدا	- النساء عند القبائل يتمتعن بأكبر حرية

الدكتور: سواكري الطاهر

- المرأة عند العرب لا يسمح لها حضور الاجتماعات مع الرجال	- المرأة القبائلية يمكن لها الحضور والتواجد أينما تريد
- المرأة عند العرب لا يسمح لها بالأكل مع الزوج ولا مع الضيوف	- المرأة القبائلية تتناول الأكل مع كل أفراد أسرتها، كما تشارك حتى بوجود الأجنبي

المصدر: معتوق جمال: المرجع السابق 'ص 53 .

ومن الإفرازات الأخرى لاحتلال منطقة القبائل ، تجدر الإشارة إلى ظهور الدعوة التبشيرية للدين المسيحي حيث القساوسة الذين يرافقون الجيش في حملاته، يرون فرصته لتحقيق أهداف الحرب الصليبية ضد الدين الإسلامي. وكانوا يظنون بأن الوقت مناسب لتنصير المسلمين. وكانوا يتصورون بأن سكان منطقة القبائل الذين كانوا حسب اعتقادهم مسيحيون في عهد الرومان، سيكون إقناعهم بالدين المسيحي أسهل من السكان الآخرين للمجتمع الجزائري وهذا شكل من أشكال التفريق بين سكان منطقة القبائل وسكان المناطق الأخرى للمجتمع الجزائري⁽²⁰⁾.

وقد لبث بعض الضباط المؤيدين للنزعة القبائلية يقيسون مدى الفتور الإسلامي المفترض لسكان الجزائر وأعلنوا عدم اعتقادهم بوجود " تعصب ديني عميق لدى البربر " بل وذهب آخرون إلى القول بوجود تهاون في الممارسات الدينية لدى سكان المدن. وقد كتب لاباسيت (Lapasset) الحاقده على الدين الإسلامي سنة 1857 " من النادر أن نجد بين سكان الأرياف مسلما قادرا على أن يؤدي الصلوات المفروضة، وكل ما يفعلونه هو الصوم في رمضان أو ذكرهم الله بالنسبة إلى أتقاهم، وهم يداعبون حبات السبحة قائلين " الله أكبر، الله الرحيم " وهذه شهادة متطرفة تتمثل في وصف من يصوم رمضان وبذكر الله عز وجل بالشخص الجاهل⁽²¹⁾. وفي اعتقادنا تعتبر هذه التصريحات محاولة لتنصير المجتمع الجزائري.

الجزائري

والواقع أن الجهود التنصير الأكبر انصب على منطقة القبائل الكبرى. و في سنة 1873 أنشئ مركز جديد للبعثات التبشيرية لدى آيت عيبي في تقمونت متبوعا بأربع محطات أخرى. وعلى الرغم من تأكيدات المبشرين الذين لم يفقدوا الأمل وتطمينات المجتمع الكنسي، فإن حذروا احتراس القبائل لم يلق السلاح أمام الأكاذيب الباطلة المعمول بها في الوطن الأم مثل الادعاء بأن سكان القبائل أصبحوا يطلبون من الأسقف تعويض مبشره شيوخ الزوايا... وطلبوا بأن يسند إلى نساءهم القيام بوظيفة الوعظ التي بها القساوسة. لكن إخفاق المحاولة للتبشير بالمسيحية في منطقة القبائل وقيام السلطات بإغلاق المدارس التي فتحها اليسوعيون لم تثن من عزيمة الأسقف على الرغم من سعيه إلى تلطيف حماسه إلى حد ما . فقد ظل مقتنعا بأن توسيع الاستيطان والأشغال العامة، وتحويل البلاد بسرعة وبصورة نهائية سوف تكون من الأمور التي تمهد لتنصير عدد كبير من سكان الجزائر⁽²²⁾.

وقد استعمل المبشرون حتى الإغراء بالمال الذي كانوا يوزعونه على الفقراء (كما يفعلوه المبشرون والمنصرون في الوقت الحالي في منطقة القبائل) إلا أن محاولتهم منيت بالفشل الذريع. وكان القس (creusat) خوري فور ناسيونال (الأربعاء نائبا إراثن) في الفترة ما بين 1863 و1868 نصرانيا متحمسا لنشر الدين المسيحي. ورغم الظروف الاجتماعية الصعبة والمصائب المكثفة التي حلت بالسكان فإن هذا المبشر لم يفلح في تنصير ولو فرد واحد بل تعرض للخداع والسخرية من طرف سكان هذه المنطقة⁽²³⁾.

كما قام الاستعمار الفرنسي بضرب كل ما يرمز إلى اللغة العربية ومحاولته إبادة المدارس القرآنية والمدارس التي تعلم أبناء الجزائريين اللغة العربية والتاريخ وذلك بغرض تجريد سكان الجزائر من شخصيتهم الجزائرية ومقاومتهم الأساسية

الدكتور: سواكري الطاهر

مثل الدين الإسلامي واللغة العربية، ففي منطقة أزفون مثلا عندما وصل الفرنسيون وجدوا التعليم العربي في وضعية حسنة بفضل نشاط المرابطين الأشراف المتواجدين بكثافة في هذه المنطقة. وكانت أشهر المدارس تتمركز في قرى عشوية، سيدي منصور، ثيقريت - آيت سيدي يحيى، إبيسيكين شرفة. وبفضل نشاطها تخرج عدد معتبر من الأئمة توزعوا على القرى لذلك كان معظم السكان أثناء الاستعمار الفرنسي يعرفون مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون ما تيسر من القرآن الكريم. كما برز العلماء الذين هاجروا إلى المدن الكبرى كالجزائر العاصمة أثناء الاحتلال أمثال الشيخ أبي يعلى الزواوي من قرية ثيفريت ناثا الحاج والشيخ محمد سعيد بن زكري من قرية إبيسيكين⁽²⁴⁾.

وتطلب من فرنسا تنصير وفرنسة المجتمع الجزائري بناء مدارس جديدة إلا أن هذه الفكرة لاقت معارضة شديدة من طرف مستشار البلدين برفضهم المستمر لبناء مدارس للسكان المحليين رغم مطالبة السلطات الولائية وقسيس الجزائر حين ذاك. وكانوا يبررون هذا الرفض بقولهم أن "الأولوية لدى المحليين هي شق الطريق وإيجاد منابع مياه بدلا من التعليم الذي لا يريدونه"⁽²⁵⁾. وهي نية مبيته لتجهيل سكان مناطق القبائل.

ولجأ الاستعمار الفرنسي في هذه الفترة إلى مصادرة الأوقاف (مصدر تمويل التعليم) ومنعت تدريس التاريخ والمواد العلمية وكذا إنشاء مدارس، حيث قام الاحتلال الفرنسي بتأسيس مدارس فرنسية تدرس العربية صباحا والفرنسية مساء. وتروي بعض الكتابات أن سكان عشوية (الواقعة في منطقة أزفون) قد رفضوا أبناء مدرسية فرنسية في مطلع القرن العشرين وفضلوا التمسك بالتعليم العربي⁽²⁶⁾. و مما لاشك فيه أن إنشاء المدارس الفرنسية يندرج ضمن سلخ الشعب الجزائري شخصيته الوطنية عن طريق زرع سياسته التفرقة بين سكان المجتمع الجزائري. لكن ظل التعليم العربي الأصيل صامدا في قرى عديدة في شكل

الجزائري

كتاتيب ومدارس في مستوى الثانويات (ثيمعمرت) أهمها سيدي منصور (آث جناد) وعشوية (زرخفاوه) وغيرها من القرى الأخرى. أما التعليم فكان طلبة أرفون يقصدونه في قسنطينة وجامع الزيتونة والمشرق العربي. وهذه الكتابات ما هي إلا أدلة على فشل سياسة الاحتلال الفرنسي في التفريق بين سكان منطقة القبائل والمجتمع الجزائري، كما فشلت هذه السياسة في التشكيك في معتقدات منطقة القبائل والتي من أهمها معركة تامدا في 15 أفريل 1871 .

حيث كان هجوم الثوار عنيفا على جنود الاستعمار الفرنسي الذي حاول الرد على هذا الهجوم لكن بدون جدوى⁽²⁷⁾. وتبين الشواهد في مناطق القبائل أكاذيب الاستعمار وإن كانت توجد اختلافات في العادات والتقاليد بين مناطق الجزائر إلا أن المقومات الأساسية بقيت راسخة وثابتة بين سكان منطقة القبائل وأحسن مثال على ذلك نظام (ثاجماعت) وهي هيئة تتولى تسيير القرية وتتكون من إمام القرية وممثلي "طمان" الحارات (إذرما). وتعد اجتماعاتها أيام الجمعة للنظر في شؤون القرية المختلفة كحل الخلافات بين السكان والتعاون والتضامن والتربية والتعليم وهي قيم مستمدة من الدين الإسلامي ومن أهم آليات أعمالها (ثيويزي/التطوع) والقوانين العرفية التي تهدف إلى الحفاظ على توازن المجتمع. وهذه الآليات تطرق إليها العالم الفرنسي بيار بورديو في كتابه علم الاجتماع الجزائر (sociologie de l'Algérie) فدور ثاجماعت هي محاربة السلوكات المنحرفة في مناطق القبائل كالسرقة إلحاق الضرر بحقول الغير، سب وشتم الآخرين، شرب الخمر، التخاصم، التواجد في عيون الماء في الأوقات المخصصة للنساء وهذا دليل قاطع للرد على ادعاءات بعض الذين درسوا سكان القبائل في تصريحهم أن المرأة القبائلية يمكن لها الحضور والتواجد أينما تريد وهي محاولة يائسة للمساس بشرف وكرامة المرأة القبائلية تضاف إلى كل المحاولات الفاشلة

الدكتور: سواكري الطاهر

للسياسة الاستعمارية في تكريس الطائفية بين سكان منطقة القبائل والمجتمع
الجزائري.

الجزائري

المراجع:

- 1- محمد نجيب بو طالب: سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2002، ص 70 .
- 2- عميراوي أحميده وآخرون: السياسة الاستعمارية في المجتمع الجزائري (1830-1954) سلسلة المشاريع الوطنية ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، دار القصة الجزائر، 2007، ص 46.
- 3- حسين بهلول: الغزو الرأسمالي الزراعي للجزائر ومبادئ إعادة تنظيم الاقتصاد الوطني بعد الاستقلال، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1984 ، ص 22 .
- 4- Pierre Bourdieu : **sociologie de l'Algérie**, que-sais-je, puf, Paris, 1970, p11.
- 5- C.Lacoste-Dujardin : **un village algérien structures et évolution récente**, document du centre de recherche anthropologique préhistorique et ethnographique, organisme nationale de la recherche scientifique, société national d'édition et de diffusion, Alger, 1976, p61 .
- 6- محمد نجيب بو طالب : المرجع السابق، ص 101.
- 7- محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص 135 .8- محمد الصغير فرج: تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة 1954، ترجمة موسى زمولي، منشورات زرياب، الجزائر، 2002، ص ص 187 188 .
- 9- ش. د . أجرون: المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، مقاومة القبائل للإدماج والتفكيك وفشل مشاريع التنصير والتجنيس، ترجمة وتقديم: محمد العربي ولد خليفة، منشورات ثالة، الجزائر، 2004، ص 34.
- 10- نفس المرجع ، ص 35 .

الدكتور: سواكري الطاهر

- 11- محمد نجيب بوطالب : المرجع السابق ، ص 101 .
- 12- نفس المرجع ، ص 102 .
- 13- نفس المرجع ، ص 102
- 14- ش.د.أجرون : المرجع السابق ، ص ص 23 و 24
- 15- محمد نجيب بوطالب : المرجع السابق ، ص 35
- 16- معتوق جمال : علم الاجتماع في الجزائر ، من النشأة إلى يومنا هذا ، دار الإمام مالك للنشر والتوزيع الجزائر، 2006 ، ص 44
- 17- ش.د. أجرون : المرجع السابق ، ص 29 .
- 18- نفس المرجع ، ص 27 .
- 19- محمد الصغير فرج : المرجع السابق ، ص 200 .
- 20- محمد الصغير فرج : المرجع السابق ، ص 141 .
- 21- ش.ذ. أجرون : المرجع السابق ، ص 104 .
- 22- نفس المرجع ، ص 128.
- 23- محمد الصغير فرج ، المرجع السابق ، ص 141.
- 24- محمد أرزقي فراد :أزفون، تاريخ وثقافة، دار الأمل للطباعة النشر والتوزيع، الجزائر، 2006 ، ص 25.
- 25- محمد الصغير فرج: المرجع السابق، ص 191
- 26- محمد أرزقي فراد: أزفون، تاريخ وثقافة، المرجع السابق، ص 152 .
- 27- محمد الصغير فرج: المرجع السابق، ص 152.